.

العبودية بين صفات الجلال والجمال

أعظم ما يحيي القلب أن يعرف العبد ربَّه؛ فيخشع لجلاله، ويأنس بجماله، ويسير إليه بجناحَي الخوف والرجاء. هناك تتحقق العبودية في أبهى معانيها، بين رهبةٍ تذلّ النفس، ورحمةٍ تحيي الروح.

١ -معرفة الله.. أصل الدين وروحه

أعظم ما يفتتح به المؤمن رحلته في هذه الدنيا هو معرفة الله جلّ جلاله. فهي أصل الدين وروحه، والغاية التي خُلق الإنسان من أجلها. وكلما ازداد العبد معرفةً بربّه، ازداد حبًّا له وخضوعًا وتعظيمًا. فالمعرفة بالله ليست علمًا يُحفظ، بل حياةً تسري في القلب، ونورًا يضيء الطريق.

٢ -الفطرة.. البذرة الأولى للإيمان

جعل الله في قلب الإنسان فطرةً نقيةً صافية، تشهد له بالربوبية والوحدانية، وتدفعه دفعًا نحو عبادته، حتى لو غطّتها الشهوات أو حجبتها الضلالات. هي بذرة الإيمان الأولى، لا تزهر ولا تثمر إلا إذا سُقيت بنور الهداية، فتستيقظ النفس من غفلتها وتعود إلى أصلها.

٣ -العقل.. أداة الشهادة لا أداة الابتداع

ثم يأتي دور العقل، تلك الأداة التي وهبها الله للإنسان ليتأمل ويتفكر، لا ليبتكر دينًا جديدًا، بل ليشهد للحق الذي تشهد له الفطرة. فإذا اجتمع نور الفطرة وسلامه العقل، يكاد يهتدي العبد إلى الإسلام تلقائيًّا، حتى قبل أن يبلغه الوحي.

وهذا ما أشار إليه الله في آية النور:

﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾.

وكذلك في قوله تعالى :

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ ق: ٣٧

أي القلب السليم والعقل المتأمل في جمال ربه وجلاله، تكاد تهتدي قبل الوحي... وعندما يلتقيا بنور الوحي، فيكون حال القلب نورًا على نور .

وكما قال تعالى :

﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَـٰهُمْ هُدًى﴾ الكهف: ١٣

لكن من رحمة الله أنه لم يكلّف العباد بهداية الفطرة والعقل وحدهما، ولم تُقم الحجة إلا بالوحي والرسل مبشّرين ومنذرين .

فإذا جاء الوحي إلى القلب السليم، صدّق العقل والفطرة، وانعقد الإيمان في القلب عقدًا لا ينفصم.

٤ -الانفعال بالوحي.. رهبة وأنس

وحين يطرق الوحي قلبًا سليمًا محبًّا للهداية، يهتز الوجدان من جلال الله فيخاف هيبةً، ثم يطمئن برحمته فيأنس. هناك، في أعماق القلب، تنشأ علاقة فريدة تجمع بين الخوف والطمأنينة، بين الرهبة والرحمة.

قال تعالى:

﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾ الزمر: ٢٣

تأمّل الآية.. إنها تخص الذين يخشون ربهم بالانفعال للوحي وتلقي النور؛ لأن من عرف الله عظّمه وخافه، وهؤلاء وحدهم هم الذين تتفاعل قلوبهم مع الوحي، وهم المستحقون أن يدخل النور المقدّس إلى قلوبهم.

أما القلب المتكبر، المعاند للحق، الذي لا يعرف ربَّه ولا يخشاه، فهو أحقر من أن يُبصر هذا النور أو يذوق طعمه. ولذلك قال تعالى:

﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٞ وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارٗا﴾ الإسراء: ٨٢.

فالمؤمن يخشع قلبه ويُشفى بنور الوحي، أما المتكبر المعاند فيُعاقب بالحرمان، فيزداد خسرانًا، وقد وصفه الله بالميت، والأصم، والابكم، والأعمى، لأنه أغلق على نفسه أبواب الحياة والنور.

وبهذا تفهم الكثير من الايات التي تنفي الهدايه عن المعاند والمتكبر، وتوجيه الله لرسوله الأعراض عنهم وان لا يكلف نفسه العناء. لانهم

وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسۡتَيۡقَنَتۡهَآ أَنفُسُهُمۡ ظُلۡمٗا وَعُلُوّٗاۚ فحرمهم الله من الهدايه،،، عقاب للاستكبار والعلو.. كحال ابليس. قال الله:

قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ أَسۡتَكۡبَرۡتَ أَمۡ كُنتَ مِنَ ٱلۡعَالِينَ ص: ٧٥

اي أستكبرت على الامر

ام تعاليت على من يأمر؟ فعندما يعلم العبد الحق، ويقابل ربه بالاستكبار، او يتعالى على امر ربه ويقدم هواه ... ويتخذ الهه هواه ... قد يعاقب ويخرج من رحمه الله ويحرم والعياذ باللع من ان يصل الى قلبه النور...

ونقصد هدايه المعونه والثبات .. فهي خاصه.

اما هدايه الدلاله فقد جعلها الله لكل عبد، ولا تقام الحجه الا بها .. قال ربنا :

وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيۡنَٰهُمۡ فَٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡعَمَىٰ عَلَى ٱلۡهُدَىٰ فَأَخَذَتۡهُمۡ صَٰعِقَةُ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡهُونِ بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ

فهدايه الدلاله حصلت لفرعون وابي جهل ولكل كافر ...

لكن هدايه المعونه فهي لمن يستحق والله حكيم خبير..

حكيم في قضاءه وقدره

خبير بمن يستحق الهدايه "العون والثبات."

٥ -صفات الجلال والجمال.. تكامل الكمال لا تضاد

ومن تمام المعرفة بالله إدراك صفاته. فقد يظن الجاهل أن الرحمة تناقض الجبروت، أو أن العزة لا تجتمع مع اللطف. والحقيقة أن صفات الله جميعها صفات أزلية ذاتية لا تتغير، يكمل بعضها بعضًا، لتظهر كماله المطلق.

قال ابن القيم:

»كمال كل صفة إنما يكون باقترانها بضدها، فالجلال إن لم يقترن بالجمال كان قهرًا محضًا، والجمال إن لم يقترن بالجلال كان ضعفًا وعجزًا، وإنما الكمال أن يجتمع الأمران» مدارج السالكين.

فهو سبحانه رحيم غفور عند موضع الرحمة، شديد العقاب عند موضع العقوبة، عزيز لا يُغلب، غفور لا يعجزه ذنب. فالجلال والجمال ليسا تضادًا، بل هما وجهان متكاملان للكمال الإلهي.

ولأجل تقريب المعنى بلا تشبيه ولا تمثيل: لو رأيت ملكًا يسامح دائمًا بلا حدود لكان عجزًا وسذاجة، ولو كان لا يعرف إلا البطش والصرامة لكان نقصًا وظلمًا. وصفات الله ذاتية أزلية كلها حسنى ولا يعتريها نقص، يغفر لأنه غفور بذاته، ويرحم لأنه رحيم بذاته، لا لأنه محتاج لمن يغفر له. ولله المثل الأعلى.

والله لا يحتاج الى من يرحم ومن يغفر له ليكون رحيم وغفور فهو كذلك قبل ان يخلق الخلق.

تامل قول ربنا :

كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ• وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَـٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ الرَّحْمَٰن: ٢٦-٢٧

يوم القيامه يفنى كل الخلق بشر وجن وملائكه .. ويبقى الله وحده مالك الملك .. ويبقى ذو الجلال والإكرام.. لان الله لا يحتاج لمن يكرمه او يعلمه او يعبد. فهو ذو الجلال والإكرام بخلقه وبغيرهم .

٦ -العبودية.. معرفة العبد بربه ونفسه

هذا الفهم يورث في القلب حقيقة العبودية. تامل وتدبر..إذا عرف العبد ربَّه، عرف نفسه. فإذا تجلّت في وجدان العبد عظمة الله وصفاته، عرف نفسه ورأى نفسه عبدًا ضعيفًا ذليلًا، لا يملك من أمره شيئًا.

والعبودية في أصلها ذلٌّ وخضوع، لكنها

ذلٌّ ممتزج بالحبّ والتعظيم. قال ابن القيم:

» العبودية اسم جامع لغاية الحب مع غاية الذل.«

ويعلم العبد أنه وما يملك ملك لسيده، وأن ما في يده من مال أو سلطان إنما هو عارية مؤقتة امتحانًا واختبارًا.

ومن أجمل صور انفعال العبد مع سيّده ومالكه: التسبيح والحمد. فالتسبيح :

تنزيه الله عن كل نقص في الكمال،

والحمد

ثناءٌ وشكر يفيض من الحب والتعظيم.

فالتسبيح ليس مجرد تنزيه، بل هو تنزيه عن كل نقصٍ في الكمال المطلق. وكل ما يخطر ببال البشر من كمال وجلال وجمال لله، فإنه لا يرقى ليليق بعظمه الله.. لذلك التسبيح يتجاوزه إلى أعظم مما خطر ببال احد. وهكذا يجتمع في التسبيح اعتراف العبد بعجزه عن إدراك كمال الله، مع إقراره بجلاله وجماله.

٧ -**السير إلى الله.. رحلة العمر**

وحين يستقر هذا الوعي، تتحول المعرفة إلى سلوك وحركة، فيسير العبد إلى الله بقلبه وجوارحه، متنقّلًا من الغفلة إلى الذكر، ومن الكبر إلى التواضع، حتى يدرك أن حياته كلها رحلة إلى الله.

ويسير بجناحي الخوف والرجاء، فلا ينقطع ولا يزيغ.

والقلب في سيره إلى الله كطائر؛ جسده ورأسه المحبة والتعظيم، وجناحاه الخوف والرجاء. لا يستقيم الطيران إلا بهما معًا؛ فإن غلب الخوف هلك، وإن غلب الرجاء غوى. وإنما الكمال في التوازن.

يعيش المؤمن إذن:

بين هيبة الجلال وأنس الجمال، لا ييأس من رحمة الله ولا يأمن مكره، طالبًا وجهه ورضاه. والخوف والرجاء في حقيقتهما ليسا مجرد مشاعر، بل هما انفعال القلب بصفات الله:

الخوف أثرٌ من جلاله وعظمته، والرجاء ثمرةٌ من رحمته وجماله.

اذا الخوف والرجاء هو انفعال الوجدان للجمال والجلال في صفات الله التي عرفها المؤمن

فإذا تجلّت هذه الصفات في القلب اهتزّ وجدان المؤمن وحصلت له الهداية.

🔹 **هكذا يكتمل معنى العبودية بين صفات الجلال والجمال: خشوعٌ يذلّ القلب، ورحمة تحيي الروح، وسيرٌ دائم إلى الله بجناحي الخوف والرجاء.**

والله اعلم...

اللهم علِّمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علَّمتنا، وزدنا علمًا نافعًا وعملاً صالحًا، واجعلنا من عبادك الذين يخشونك حقَّ خشيتك، ولا تحرمنا خيرك بسوء أعمالنا، وارزقنا شرف

ان كان من عبادك الصالحين ونعوذ بوجهك ان نكون من المحرومين، برحمتك يا أرحم الراحمين.

🤲